التصوير فى الشعر العربى

للأستاذ فخرى ابو السعود

الوصف من أهم أغراض الشعر وأخص فنونه . وكلما كثر فى شعر لغة أو آثار شاعر ، دل على رقيهما الفنى ، إذ أن مناظر الطبيعة خاصة ، وروائع المشاهدات عامة ، من أشد العوامل تأثيراً فى النفس الشاعرة وتحريكا لعاطفتها وبعثاً لها الى القول . والوصف فى الشعر العربى غزير يتناول شتى الموضوعات ، ويبلغ فى يد كبار شعراء العربية غاية الاجادة . فكثيراً ما تخلص شعراؤنا من قيود المدح والرثاء والنسيب الاستهلالى - مهما كان تقيدهم بهذه الأغلال الثقيلة التى كبلت الشعر العربى - وعرجوا على وصف أثر من آثار الطبيعة أو المدنية ، فأبدعوا وأرضوا الفن ، أضعاف ما أرضوه بمبالغات المدح والرثاء والنسيب المدعى .

ولكن الذى أريد الاشارة اليه فى هذه الكلمة ، ان اعتماد الوصف فى الشعر العربى كان دائما على المعنى دون اللفظ ، على التشبيه والاستعارة والمجاز دون جرس الالفاظ وتتابع التراكيب ووقع الاوزان والقوافى . بينما الشعر الوصفى الغربى اعتمد على هذه الاشياء الاخيرة اعتمادا كبيراً . فبلغ الغاية فى المطابقة بين المعنى واللفظ مطابقة تملأ الوصف حياة وجلاء ، وتوفر بعض الشعراء على هذا الضرب من التصوير ، ومنهم ملتون وتنيسون ، ولا سيما الثانى الذى بلغ فى القدرة على تذليل اللفظ للمعنى واستخدامه فى تصوير ما يشاء حداً منقطع النظير . وأصحت آثار أولئك الشعراء مهبط وحى لكبار المصورين يستلهمونها ما حوت من روائع الاوصاف ومحكمات الصور ويسجلون ذلك على لوحاتهم .

اذا كان فى المنظر المراد تصويره حركة كجريان نهر أو عدو جواد استخدم الشاعر الغربى بحرا من بحور الشعر يلائم تلك الحركة ويحكيها . واذا كان به صوت أو أصوات مختلطة كهدير أمواج البحر أو قصف المدافع فى الحرب اختار من الالفاظ تلك التى تحتوى على حروف خشنة قوية ، واذا كان بصف منظرا ساكنا وادعا لم يذكر ذلك فى القصيدة ذكرا ، وانما استعمل الالفاظ ذات الحروف اللينة كالسين مثلا ، وهناك عدا هذا وذاك ضروب شتى من الملاءمة بين الصيغة والمعنى يفتن فيها الشاعر الوصاف ماشاء له اقتداره : ككثرة العطف وتكرار الحروف والكلمات والتراكيب والابيات الكاملة .

ولقد وقع شىء من ذلك فى بعض أشعار الوصف العربى ، ولكنه كان الهاما محضا او اتفاقا عارضا ساقت الشاعر اليه المصادفة السعيدة أو السليقة المجيدة ، دون أن يعمده أو يتكلف فى صوغه عناء ، ويقرأه القارىء العربى فيستطيبه ويعزو موقعه من نفسه الى مجرد جودة معانيه وحسن تشبيهاته . ويجمل ذكر شىء من هذا للتمثيل والبيان :

فى معلقته يصف امرؤ القيس الليل فى بيته المشهور

فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف اعجازا ونآء بكلكل

وفضلا عن جودة المعنى وحسن التشبيه فى هذا البيت يزيد الوزن والتركيب الوصف المراد ظهورا : فالبحر الطويل ذو الحركة الوئيدة وتكرار العطف بالواو يمثلان بطء مسير الليل ولجاجه فى الاقامة وتماديه فى الطول خير تمثيل ، وفى بيته الآخر حيث يصف جواده بقوله :

مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

نرى تتابع الصفات بلا فاصل فى الشطر الاول ، واستعمال الالفاظ الضخمة الخشنة فى الشطر الثانى يمثلان توثب الجواد وسرعة انطلاقه وارتداده ومفاجآت حركاته تمثيلا جيداً يصرف النظر عن تشبيهه بانحطاط الصخر من شاهق . وفى قول المتنبى :

أتوك يجرون الحديد كأنما ... سروا بجياد مالهن قوائم

خميس بشرق الارض والغرب زحفه

وفى أذن الجوزاء منه زمازم

نرى وصفا رائعا لجيش كثيف وئيد الزحف لكثافته ،

ولقد كان داتى يطوف فى الطبقة الأولى من الجحيم . فزلزلت الأرض زلزالها ، وانتشر فى الجو نور أحمر تكاثف حتى ملأ الآفاق فتقد كل المشاعر والحواس . لولا رعد قاصف دوى فى أذنيه فأفاقه وهكذا كان داتى مضطرب القلب مروعا من رحلته ، على حين ان ابن الفارض كان طروبا كما حدثنك حتى فى أشد المواقف إزاية للصخور الجلامد .

وذلك فرق ما بين الشاعرين : داتى العابس ، والمعرى الباسم فى رسالة الغفران لا فى اللزوميات .

يتبع

محمود احمد النشوى

وليس فى البيتين معنى كبير ، وليس فيهما سوى مبالغة غير معقولة ، ولكنه البحر الطويل يمثل هذه الحركة البطيئة أتم تمثيل ، هذا فضلا عن نغامة الالفاظ التى تخيرها الشاعر ؛ ونرى البحر الطويل يؤدى مثل هذا الغرض ويرسم صورة أخرى رائعة فى قول جميل

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

فهنا حركة الابل البطيئة واضحة ماثلة ، وقد كان جميل ملهما حيث ذكر كلمة أعناق فى البيت الثانى فانها وحدها ترسم الصورة التى اراد : فان ذكر الجزء الأهم من الصورة ، كثيرا مايبعث الى المخيلة باقى الاجزاء ويبرز الصورة جلية كاملة ، ويترك البحر الطويل مثل هذا الأثر أيضا فى قول البارودى الذى اشار اليه الدكتور صبرى فى كتابه عن الشاعر :

— ونهنا وقع الندى فى خيلة —

فاذا قرىء هذا الشطر بتأن وجدنا الوزن يمثل تساقط قطرات الندى متتابعة ، اما الحركة السريعة فيمثلها البحر الكامل ، ومن ذلك قول المتنبى :

اقبلت تبسم والجياد عوابس يخبين بالحلق المضاعف والقنا
عقدت سنابكها عليها عثيرا لو تبتغى عنقا عليه لامكنا

ففى البيت الثانى نرى مبالغة أخرى من مبالغات المتنبى ، وهى وحدها لاتكاد تؤدى معنى ، ولكن البحر الذى صيغت فيه القصيدة يؤدى خبب الجياد خير أداء ، حتى ليكاد يريك توثب الفرسان فوق ظهورها ، ولو حاول الشاعر وصف الخبب فى البحر الطويل لما استقامت صورته

ولتكرار الألفاظ أو التعبيرات احيانا اثر بليغ فى ابراز الصور وبعث الأخيلة . ففى قول ابن هانى الأندلسى :

وفوارس لا المضب يوم مغارها مضب ولا الوعر الحزون حزون

يوحى تكرار كلتى مضب وحزون الى المخيلة تتابع الهضاب والربى أثناء عدو الفرس ، فكأنه يعرض أمام العين شريطا سينمائيا متحركا ، أضف الى ذلك صوغ البيت فى البحر الكامل واختيار الكلمات الفخمة ، وفى قول الاستاذ المازنى :

لغط اليم اذا اليم طما والتقت فيه هضاب بهضاب

ترى صورة رائعة لجيشان اليم ، ولا يرجع هذا الى معنى البيت وحده ، ولكن الى وزنه والفاظه كذلك : فبحر الرمل يمثل الحركة المضطربة أدق تمثيل . وتكرار كلتى اليم وهضاب يوحى الى المخيلة تتابع اللجج ، وتكرار حرف الهاء ثلاث مرار فى الشطر الثانى يزيد الحركة تصويرا وبروزا

كان ذلك فى الغالب كما ذكرت محض اتفاق أو الهام ، ولم يقم فى العربية فرد أو مدرسة تتوفر على هذا الضرب من النظم والتصوير وانما حين اتجه نظر الشعراء الى اللفظ صادف ذلك عصر انحلال الأدب فلم يسخروا اللفظ لابراز المعنى ، بل صرفوا كل همهم الى اللفظ دون المعنى ، وولعوا بالألاعيب اللفظية التى سموها محسنات ، وأوغلوا هذه الغثاثات على أجل فنون الشعر خطرا كارثا . والنسيب فاسفت وانعدم فيها الحس والشعور ؛ فرأينا شاعرا ينسب فيقول ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعانى أمت بما أودعانى

وآخر يتوجع فيقول :

لى مهجة فى النازعات وعبرة فى المرسلات وفكرة فى هل أتى

وثالثا يمدح فيقول :

وان أقر على رق أنامله أقر بالرق كتاب الانام له

وليس فى كل هذا تعبير عن شعور أو أداء غرض ، وماهو إلا عبث بالألفاظ واقتناص للجناس والطباق والسجع والتورية ، وإنما أكثرت من هذه الامثلة الغثة لأوضح كم كان الشعر العربى يربح لو أن المجهودات التى صرفت فى مثل هذا التحايل العقيم وجهت إلى تسخير اللفظ للمعنى والاستعانة بهما معا على ابراز الوصف المقصود كما يصنع شعراء الغرب

وليس فى طبيعة اللغة العربية قصور يحول بينها وبين مجاراة اللغات الأخرى فى هذا الباب ، بل لها من الميزات ما يقدمها على غيرها : فهى كثيرة البحور التى يؤدى كل منها غرضا مختلفا ، غزيرة الألفاظ الوعرة الضخمة والرقيقة اللطيفة التى توحى بخشونتها أو رقتها مختلف الصفات ، غنية بالحروف السلسة اللينة والحروف الخشنة الجافية التى تطاوع الناظم القدير . ليس يعوز العربية شىء من ذلك وانما يعوزها الجرأة من الناظمين بها والعزم والجلد .

فخرى أبو السعود

الانتصار ؟!..